شيخ الإحسان

(١)

أتذكر يومًا بعينه، في شهر رجب، حينما جاءنا الخبر. كان الخبر قد أُشيع وأُذيع، أخبرونا أن جماعةً قد تعصبت على شيخنا الفاضل، تجمعوا عليه وتفردوا به وانهالوا عليه بالضرب.

انطلقتُ إلى جامع مصر لا ألتفت إلى أحد حتى تقر عيناي برؤية الشيخ، وجدتُه في مسجد الفخر كاتب المماليك، وقد اجتمع حوله جمعٌ غفير. اقتربتُ وأنا في حيرة. كنتُ أخشى أن يكون قد أُصيب بأذى جسيم، لكنني وجدته كما عهدته، هادئًا، وقورًا، كأنه الجبل لا تهزه رياح الدنيا. قال له أحد ممن كانوا حاضرين: "يا سيدي، جئنا لنحطم مصر إن أمرتنا، والله لا نترك فيها حجرًا فوق حجر حتى نقتص لك"

وكما لو أن كل ما يحيط به لا يمسه قال :" لأي شيء تفعلون ذلك؟" أردف "هذا ما يحل، هذا ما يجوز"

حاولوا مراتٍ ومرات إقناعه بالرد بالمثل، وكلما ألحوا عليه، زاد تحيري منه.

"إما أن يكون الحق لي أو لكم أو لله. فإن كان الحق لي، فهم في حلٍّ منه. وإن كان لكم، فإن لم تسمعوا مني، افعلوا ما شئتم. وإن كان الحق لله، فالله يأخذ حقه كما يشاء"، قال وقد غيّر مجرى الحديث ولربما مجرى حياتهم أيضاً، يُرغبهم أن يدخلوا جنة العفو التي هو يرتاح بها، ويبدد عنهم ظلمات الغضب.

صامتًا وقفت هناك، أراقب مشهده يزجر الحشد أمامه بحكمة غريبة عني، عنهم، عن كل ما حوله. كان الشيخ بيننا، لكنه لم يكن أبدًا أحدًا منا.

(٢)

في تلك اللحظات المعلقة بين النهار والمساء، نظر الشيخ إلى الأفق وقد أحس قلبه بدنو وقت الصلاة. فما إن نهض يقصد الجامع حتى أمسكه أصحابه: "يا سيدي، قد تواصوا عليك ليقتلوك. وفي الجامع سيكونون أكثر تمكنًا منك. صلِّ حيث أنت" قالوا يرجونه، وقد تبدل الغضب في أعينهم إلى خوف. ولكن الشيخ لم يُذعن لرجائهم وسار باتجاه الجامع والناس من خلفه يتبعونه كأمواج متلاطمة.

علمت عندئذ أن الشيخ ماضٍ إلى خصومه ولا حيلة لإيقافه. أصابني شعورٌ من الهلع ولم أجد إلا وقد ألقيت بنفسي وسط هذا المد المتصاعد من البشر. أتبع الشيخ بدعائي قبل قدمي، "يا الله، يا الله، سلم لنا شيخنا". امتلأت الطرقات من حولنا بالناس حتى فاضت. أشار عليه أحدهم أن يستريح في مسجدٍ ما قريب ريثما ينفض الزحام، استجاب له الشيخ فدخل، ولكن لم يسترح بل ضل واقفًا، فاستراحته كما عهدناه، ليست جالسًا، بل في المسجد قائمًا بالصلاة.

(٣)

خرج وخرجنا خلفه، لا أعلم يومها هل كنت أتبعه أم أشيعه، أخذت أسجل في ذهني كل حركاته وسكناته. كان الخوف يغزو الطرقات، يتسرب إلى الكلمات ويغشى كل الوجوه إلا وجهه. نظرت نحوه فلم أرَّ من الخوف فيه أي أثر، كانت به سكينة خالدة. كان من اولئك الذين يعرفون أكثر مما يقولون ومن الذين يرون ما وراء الزمان حين ينظرون.

وفي خضم اعتمالات نفسي وقلقي عليه، توقف الشيخ عن المشي قليلاً ووقف أمام مسطبة احد الحوانيت وكان حواليها رجالٌ قد آثروا اللعب وزحموا الطريق، نفض الرقعة بيده فطارت تتقلب في الهواء، وتساقطت أحجارها جميعًا على الأرض. تركنا مشدوهين بفعلته، ولكن لا عجب، فقد كانت رحلة الشيخ في هذه الحياة كمثل سيره نحو المسجد، يقوم اعوجاج الناس ولا يلتهي بهم، ثم يسير نحو ما امره الله، منقادًا محبًا، لا يؤثر على لقاء ربه شيء.

(٤)

وصل إلى الجامع، وكانت قلوبنا تنبض بثقل مع كل خطوة. "هنا يقتلونه، الساعة يقتلونه" الهمسات ترتفع وتزيد من حولنا في ترقبٍ محموم، ولكن الشيخ كان قد رأى في ذلك الحتف المحقق فرصة لإعلاء كلمة الحق ولم يتردد في اغتنامها. دخل الجامع وصلى ركعتين تحية للمسجد، وما إن فرغ من صلاة العصر حتى جلس مستويًا، وشرع في تبيان الفتنة التي أدت إلى كل هذا الشقاء والشغب.

كيف لمجرد كلماتٍ قليلة أن تُبدد ظلمات الغضب في عقول الناس؟ بل كيف لرجلٍ واحد أن يغيّر قلوب كل هؤلاء الناس؟

(٥)

خصومه كانوا هناك، يترقبونه، قد استعدت نفوسهم لإراقة الدماء في سبيل الانتصار لرأيهم، ولكن وبينما كان الشيخ يتحدث، حدث التغيير. رأيت في أعينهم التردد، رأيت كيف بدأ الشك يتسلل إلى قلوبهم. فما إن غربت شمس العصر حتى بزغ نور الحقيقة في صدورهم. قام واحدٌ منهم فقال: "لقد كنا مخطئين، والله إن هذا الرجل لا يقول إلا الحق". وكما لم أشهد من قبل، رأيت كيف يمكن للعالم أن ينقلب رأسًا على عقب في لحظة واحدة، بلا ضوضاء أو صخب، بل بهدوءٍ يشبه سكون النفس عندما يأتيها اليقين.

(٦)

كان الشيخ يتحدث لا ليقنع أحدًا أو ليكثر جداله، بل كان يتحدث كمن يقدم الحقيقة بجلاء، في صورة واحدة يمكن لكل من له عينان أن يبصرها. كنا نتابع كل كلمة تصدر من الشيخ نحفظها في صدورنا وعلى الورق بين أيدينا، فما زلنا نستقي من علمه وفهمه حتى ظننا أننا قد نجونا من كل فتنة وأُحطنا بكل شبهة، وما كان كل ذلك إلا في ساعتين من ذلك النهار. خرج الشيخ من الجامع مثلما دخله، وما ظننا أننا سنشهد فيه نهاية الشيخ، ما شهدنا فيه إلا نهاية الفتنة.